الفصل الأول

ايديولوجيا القومية العربية [1]:
الفشل في تحقيق النهضة وظروف النشأة

---

(١) فضّلت استخدام كلمة "ايديولوجيا" في وصف القومية العربية في كثير من المواضع على غيرها من الكلمات ككلمة: فكر، أو مبدأ، أو مذهب، لعدة أسباب:

أ- إنها أكثر صدقاً في التعبير عن التغيير الجذري الذي استهدفته التيارات القومية العربية لواقع الأمة الديني، فهي أرادت إقامة رابطة الإخاء القومي العربي بين أفراد المجتمع بدلاً من رابطة الإخاء الديني التي كانت قائمة في الخلافة العثمانية، وأرادت إشاعة الولاء للقومية العربية بدلاً من الولاء للعقيدة الدينية، وأرادت إقرار القومية العربية مقياساً للصواب والخطأ بدلاً من مقاييس الدين الإسلامي إلخ...

ب- إنها أكثر دقة في التعبير عن التغيير الشامل الذي استهدفته التيارات القومية العربية لمختلف المجالات الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والتربوية والأسرية إلخ...

ج- إنها أكثر صدقاً في وصف حال القيادات القومية الذين جاءوا بحماس أصحاب العقائد، وأحلامهم العريضة عند استهدافهم تغيير الواقع في مطلع القرن العشرين.

obeikandl.com

obeikandl.com

تعميم ايديولوجيا القومية العربية

خاضت الخلافة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا عام ١٩١٤م، وانفصل العرب عن الأتراك عقب الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م، وتقسمت المنطقة العربية إلى عدة دول حسب اتفاق سايكس-بيكو، وهي: العراق، وسورية، لبنان، الأردن، وحكمت هذه الدول المنشأة حديثاً قيادات قومية عربية ذات ايديولوجيا قومية عربية، وأتاح لها ذلك الحكم أن تطبق رؤيتها للنهضة بين الحربين العالميتين في مختلف المجالات: الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والتشريعية، والتربوية، إلخ...

وكانت مصر بين الحربين العالميتين تدين بالقومية المصرية بعد ثورة عام ١٩١٩م التي قادها سعد زغلول، لكن الانقلاب الذي قاده جمال عبد الناصر في مصر عام ١٩٥٢م نقل مصر من إطار ايديولوجيا القومية المصرية إلى نطاق ايديولوجيا القومية العربية، واستطاعت مصر بقيادة جمال عبدالناصر أن تؤثر في معظم الدول العربية وتجعلها تحمل ايديولوجيا القومية العربية،

فقامت الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨م تطبيقاً للمبدأ الوحدوي في ايديولوجيا القومية العربية، ثم وقع انقلاب عبدالله السلاّل في اليمن عام ١٩٦١م ونقل اليمن من الإمامة الدينية إلى ايديولوجيا القومية العربية وتلقى دعماً مباشراً من مصر، فأرسل جمال عبدالناصر جيوشاً إلى اليمن لمقاتلة القبائل المخالفة التي كانت تدعم الإمام السابق، وكذلك انتقلت الجزائر بعد الاستقلال عام ١٩٦٢م من الاستعمار إلى ايديولوجيا القومية العربية بقيادة أحمد بن بلّة وهواري بومدين، وانتقلت العراق وسورية بعد انقلابي عام ١٩٦٣م إلى شق آخر من ايديولوجيا القومية العربية وهي ايديولوجيا القومية البعثية، وتحولت ليبيا والسودان إلى ايديولوجيا القومية العربية الناصرية بعد انقلابي معمر القذافي وجعفر النميري في عام ١٩٦٩م، وكذلك تحولت الصومال إلى ايديولوجيا القومية العربية الاشتراكية بعد انقلاب زياد بري فيها إلخ... أما البلدان العربية الأخرى التي لم تسد فيها الايديولوجيا القومية العربية بشكل مباشر، فقد تناغمت مع تلك الأفكار وأخذت بنصيب وافر منها.

obeikandl.com

سادت ايديولوجيا القومية العربية معظم البلدان العربية إن لم يكن كلها خلال العقود الستة الأولى من القرن العشرين، وأخذت تلك الايديولوجيا طريقها إلى التطبيق في مختلف المجالات: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، والإعلامية، والفكرية إلخ... واستهدفت ايديولوجيا القومية العربية تحقيق النهضة، واستهدفت من أجل ذلك أموراً متعددة، منها: إقامة الوحدة بين الأقطار العربية، وإيجاد رابطة جديدة تجمع بين أبناء العروبة، وتحقيق مجتمع حديث، ومنع إسرائيل من القيام ومن التوسع، وإقامة مجتمع مستقل ومزدهر اقتصادياً إلخ... فماذا تحقق من هذه الأهداف؟ لم تحقق ايديولوجيا القومية العربية شيئاً من تلك الأهداف، بل فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيقها، لنستعرض جانباً من ذلك الفشل في الصفحات التالية.

obeikandl.com

فشل ايديولوجيا القومية العربية في تحقيق أهداف النهضة[1]

١- الفشل في إقامة الوحدة:

استهدفت الايديولوجيا القومية إقامة رابطة جديدة بين أبناء المجتمع العربي تقوم فيه العلاقة بين الأفراد على أساس الإخاء القومي بدلاً من الإخاء الديني، فهل نجحت في ذلك؟

لا لم تستطع بدليل أنه لم تتمكن من أن تحقق وحدة بين أي قطرين على أساس قومي، بل نجد أن الحزب الواحد حكم بلدين متجاورين لكنه قامت بينهما عداوات لم يشهدها تاريخهما في

(١) لا يستطيع باحث أن يتجاهل دور القوى الاستعمارية في إعاقة نهضة أمتنا، لكنني لا أعتقد أنه العامل الوحيد في عدم قيام هذه النهضة، فصواب المنهج هو العامل الأهم في قيام النهضة، ومما يؤكد ذلك أن الدعم الخارجي قد توفّر لدعم نهضة قطرين عربيين مهمين بعد الحرب العالمية الأولى، هما: العراق ومصر، لكن النهضة لم تحدث، وذلك بسبب عدم صوابيّة ايديولوجيا القومية العربية في حالة العراق من جهة، وعدم صوابيّة ايديولوجيا القومية المصرية الفرعونية في حالة مصر من جهة ثانية.

أية مرحلة من المراحل السابقة، كما حدث بين سورية والعراق. ويدل على ذلك أيضاً أن مصر التي قادها جمال عبد الناصر في الخمسينات والستينات ودعا فيها إلى القومية العربية طوال سنوات حكمه، وأقام الوحدة بين مصر وسورية وسمى دولة الوحدة "الجمهورية العربية المتحدة" ونسخ القول بالاقليمية المصرية الذي كان رائجاً، لكنها عادت إلى الاقليمية المصرية في عهد السادات بصورة سهلة دون أن تحدث ردة فعل معينة مما يدل على عدم تغلغل الأفكار القومية العربية وعدم رسوخها في كيان الشعب المصري.

وقد أدى فشل الايديولوجيا القومية في إقامة الوحدة وفي إقامة رابطة تقوم على الإخاء القومي إلى بروز الرابطة القطرية وترسّخها في معظم الدول العربية، وإلى بروز الروابط العرقية من أمثال: الكردية، والبربرية، والآشورية إلخ...

٢- الفشل في منع قيام اسرائيل وفي منع توسعها:

برزت الأطماع الصهيونية في فلسطين منذ نهاية القرن التاسع عشر، وفاوض هرتزل السلطان عبد الحميد من أجل إباحة

الهجرة إلى فلسطين، ولكن الخلافة العثمانية رفضت ذلك، ثم أعطت انكلترا وعد بلفور عام ١٩١٧م للحركة الصهيونية، وانتدبت عصبة الأمم انكلترا على فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى، ومثّل الصراع العربي - الصهيوني أبرز تحد للايديولوجيا القومية التي قادت المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى، ومثّل قيام اسرائيل عام ١٩٤٨م أبرز فشل للفكر القومي العربي في مواجهة التحديات الصهيونية خلال النصف الأول للقرن العشرين، لأن دول العراق والأردن وسورية كانت تحمل الايديولوجية القومية العربية بشكل واضح، لكن الكارثة الأكبر كانت عندما توسّعت اسرائيل بعد حرب عام ١٩٦٧م، واحتلت كلاً من الجولان من دولة سورية، والضفة الغربية من المملكة الأردنية، وسيناء من الدولة المصرية، وعندما وقعت النكسة كما سمّاها عبد الناصر كانت الايديولوجية القومية العربية قد حكمت معظم الدول العربية بعد الاستقلال من مثل الجزائر وليبيا والسودان واليمن بالإضافة إلى العراق وسورية إلخ... وقد أثبتت هذه النكسة فشل الايديولوجيا القومية وقياداتها في بناء الأمة في مواجهة اسرائيل

obeikandl.com

وعدم أهليته لتحقيق النصر عليها، لأنه لم يحسن التعامل مع عناصر حياة الأمة ووجودها، وعناصر القوة فيها.

٣- تهديم الوحدة الثقافية وتمزيقها:

يعتبر عامل الوحدة الثقافية من أكثر عوامل تكوين الأمة تعبيراً عن وجودها وشخصيتها، وكان يفترض في الايديولوجية القومية العربي أن تساهم في تعضيده وتقويته، لكنها على العكس من ذلك ساهمت في تعريته وإضعافه بشكل لم يسبق له مثيل، فقد نظرت الايديولوجية القومية إلى الدين الإسلامي كما نظر الغرب إلى الدين المسيحي، فاعتبره عاملاً معوّقاً، وأنه يجب حصره في المسجد، وأنه سبب تأخرنا، وأنه يتعارض مع العلم، وأنه لا يكون هناك تقدم إلا بإقصاء الدين، وازداد الموقف عداء للدين في المرحلة التي تزاوجت فيها الايديولوجية القومية مع الاشتراكية الماركسية، لذلك نجد بأن الساحة امتلأت بدراسات تشكك في الله -سبحانه وتعالى- ، وفي الرسول ﷺ، والملائكة، والوحي إلخ... وتستهزئ بكل الغيبيات، وتعتبرها من الخرافات، وتدعو إلى تبني المادية الجدلية في التعامل مع كل شؤون الاقتصاد

والاجتماع والتاريخ إلخ... وقد أدى كل ذلك إلى إضعاف عامل الوحدة الثقافية في واقع الأمة.

٤- التعثر في البناء الاقتصادي والعلمي:

لقد وعدت القيادات القومية العربية الأمة في مطلع القرن العشرين بالاستقلال الاقتصادي، وبارتفاع مستوى الدخل الفردي، وباغتناء المجتمع، وتحويله إلى مجتمع صناعي إلخ... لكن النتائج كانت على عكس ذلك فهناك أزمات في كل مجال، فهناك أزمة في السكن، وهناك أزمة في الزراعة، وهناك أزمة في الصناعة، وهناك أزمة في الطعام إلخ... أما في المجال التعليمي فإن الإحصائيات تشير إلى أن ٤٠٪ من سكان العالم العربي أميون، كذلك تشير الإحصائيات إلى محدودية الابتكارات العلمية في الجامعات العربية، وإلى محدودية عدد الكتب المطبوعة في الدول العربية بالمقارنة مع دول العالم الأخرى [1]، وإلى قلّة المستخدمين

(١) يشير تقرير التنمية الإنسانية الصادر عن الأمم المتحدة والجامعة العربية في ربيع عام ٢٠٠٢م، أن الدول العربية تأتي في مؤخرة دول العالم، فالناتج القومي لأسبانيا وحدها يوازي إنتاج جميع الدول العربية، ويوضح التقرير أن الاستثمار ←

للحاسوب والانترنت إلخ...

٥- تغريب قسم من المجتمع وضياع قسم آخر منه:

لقد تسببت ايديولوجيا القومية العربية في تغريب قسم من أفراد المجتمع، وذلك لأنها جعلت الحضارة الغربية نموذجها المحتذى في كل الأمور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفنية إلخ...، كما تسببت في ضياع قسم آخر، وهذا القسم لم يقبل التغريب من جهة، ولم يستطع الحفاظ على الهوية الإسلامية من جهة ثانية.

ننتهي من كل الحديث السابق عن منجزات النهضة إلى أن ايديولوجيا القومية العربية فشلت في إقامة الوحدة، وفي منع قيام إسرائيل أو توسعها، وفي بناء اقتصاد مزدهر ومستقل، وعلى

في مجال البحث والتطوير في العالم العربي لا يزيد عمره عن ٠,٥٪ من الناتج القومي، ويمثّل أقل من ١/٤ المتوسط المتوسط العالمي، وأن نسبة البطالة في البلدان العربية تبلغ ١٥٪ وهي أعلى نسبة في العالم، ويحذر التقرير من الأوضاع الاقتصادية السيئة لأن ٢٠٪ من سكان الدول العربية يقل متوسط دخلهم عن دولارين في اليوم فقط.

العكس من ذلك ساهمت في تهديم الوحدة الثقافية وفي التسبب في تغريب قسم كبير من المجتمع، وقد أدى كل ذلك إلى توليد أمراض لم تعرفها الأمة في سابق عهودها [1]، والسؤال الآن: لماذا فشلت ايديولوجيا القومية العربية كل ذلك الفشل؟

لقد فشل الفكر القومي العربي كل ذلك الفشل نتيجة عدة عوامل يتعلق بعضها بنظرته إلى الواقع المحيط به وتحليله له من جهة، ويتعلق بعضها الآخر بمضمونه والعناصر التي قام عليها، لذلك نحن سنحلّل كل تلك العوامل، ونتساءل في البداية: هل كانت هناك ظروف تاريخية تستدعي انفصال العرب عن الأتراك؟ وهل كانت هناك عوامل داخلية تستدعي قيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م؟ وهل كانت هناك عناصر موضوعية تتطلب انبثاق ايديولوجيا القومية العربية؟

■ ■ ■

(١) أضعفت ايديولوجيا القومية العربية الأمة خلال مائة عام أكثر من كل ضعفها خلال ألف عام، وذلك بسبب أنها أورثتها أمراضاً جديدة لم تعرفها خلال مسيرها كلها، وذلك بسبب التنكر الكامل لأبرز عوامل وجودها.

لماذا انفصل العرب عن الأتراك ؟

انطلقت الدعوة إلى القومية العربية في القرن التاسع عشر من عند مسيحيي بلاد الشام فاهتمت المدارس البروتستينية في منتصف القرن التاسع عشر باللغة العربية، كما اهتمت عائلات مسيحية بنشر الأدب العربي وبعض القواميس اللغوية، وأبرز هذه العائلات عائلتا البستاني واليازجي، ثم أصبحت الدعوة إلى القومية العربية أكثر تبلوراً عندما دعت بعض الشخصيات والأحزاب التركية إلى الطورانية وأبرزها حزب الاتحاد الذي دعا إلى تتريك الخلافة العثمانية، فكان رد الفعل عند العرب بروز تيارات تدعو إلى القومية العربية، ونشأت عدة جمعيات منها: جمعية العربية الفتاة، والجمعية القحطانية إلخ... ثم وقع انفصال العرب عن الخلافة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى وبعد الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م ، فلماذا انفصل العرب عن الأتراك؟ هل استوجبت الانفصال ظروف العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلخ...؟ علينا أن ندرس الفترة التي سبقت مجيء الفكر القومي العربي.

قامت الخلافة العثمانية على عدة أجناس وعروق، وكان العرب والأتراك أبرز جنسين قامت عليهما تلك الخلافة، ولم يعان هذان الجنسان أية مشاكل بينهما [1] منذ مجيء الأتراك إلى بلاد الشام ومصر إثر القضاء على المماليك في معركة مرج دابق عام ١٥١٦م، لكن ظهرت توترات محدودة في فترة متأخرة من القرن التاسع عشر بين بعض الجاليات المسيحية والخلافة العثمانية إثر تدخل الدول الأوربية في نظام الملل العثماني كما وقع في جبل لبنان عام ١٨٦٠م، حين تدخّلت دولة فرنسا من أجل حماية الموارنة من اعتداء الدروز عليهم، وحيث انتهى الحصار على الساحل اللبناني بإقرار الخلافة العثمانية في استانبول لنظام

(١) ألقى الدكتور زين نور الدين زين في كتابه "نشوء القومية العربية" الأضواء على العلاقة بين العرب والأتراك خلال الحكم العثماني، ودلل على أن العرب كانوا يتمتعون بوضع متميز، وكذلك اللغة العربية، ولم يعان أي منهما أية مشاكل إلا في الفترة المتأخرة بعد ظهور التوجهات الطورانية المغالية في التعصب التركي تأثراً بالتوجهات القومية في أوروبا، ومن شاء التفصيل في هذه العلاقة فليعد إليه.

استقلالية الحكم في متصرفية جبل لبنان، والذي يقوم على الطائفتين: الدرزية والمارونية.

ومما يؤكد أن العلاقة بين العرب والأتراك كانت طبيعية إلى فترة متأخرة من وجود الخلافة العثمانية هو انعقاد المؤتمر العربي في باريس عام ١٩١٣م، والذي ضم كل الفصائل ذات التوجه القومي في سورية ولبنان وفلسطين والعراق، وكانت أبرز طلباته وقراراته تتعلق بالخدمة العسكرية، واللامركزية في الشؤون الإدارية إلخ... ولم يأت أي ذكر للانفصال عن الخلافة العثمانية، بل اعترفت القرارات بالرابطة العثمانية كرابطة تجمع بين الأجناس في السلطنة العثمانية. إذن ما الدوافع التي استدعت انفصال العرب عن الأتراك وبروز الفكر القومي العربي كأيديولوجية للأمة أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها؟

لم يكن انفصال العرب عن الأتراك حاجة حقيقية ملحة نابعة من ظرفهم كما سبق أن وضحنا، وإنما كان انفصالهم مطلباً من مطالب الدول الكبرى، من أجل تقسيم الخلافة العثمانية واستعمار أراضيها، وقد استخدمت الدول الكبرى

الطوائف من أجل تحقيق هدفها في فرض هيمنتها وسياساتها الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية إلخ...

وقد استغلت الدول الكبرى وقوف الخلافة العثمانية إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى من أجل دعوة العرب إلى الانفصال عن الخلافة العثمانية، وقد أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك في حزيران من عام ١٩١٦م، وقد تم طرد الجيوش العثمانية من فلسطين وسورية في عام ١٩١٧م، ثم انتدبت عصبة الأمم انكلترا على العراق وفلسطين والأردن، كما انتدبت فرنسا على سورية ولبنان، وقامت دول ذات ايديولوجيا قومية عربية في العراق والأردن وسورية أثناء الانتداب وبعده.

■ ■ ■

لقد رفعت الثورة العربية شعار "العروبة" في وجه القوميين الأتراك، كما استند إليه القوميون العرب في مواجهتهم الخلافة العثمانية، فما حقيقة مفهوم "العروبة" في تراثنا؟ وكيف تعامل معه دعاة ايديولوجيا القومية العربية؟

obeikandl.com

"العروبة" في التراث وعند القوميين العرب

عند العودة إلى "لسان العرب" نجد في مادة (ع.ر.ب) ما يلي: عَرب الرجل يعرُبُ عرْباً وعروبا، عن ثعلب، وعُروبةً وعَرابةً وعروبيّة، كفصُح، وعَرِب إذا فصُح بعد لكنة في لسانه! ورجل عريبٌ معرِبٌ.

وعرُب لسانه، بالضم، عُروبةً أي صار عربيا، وعربي بيّن العروبة والعروبية، وهما من المصادر التي لا أفعال لها. وحكى الأزهري: رجل عربي إذا كان نسبه العربي ثابتاً، وإن لم يكن فصيحاً، وجمعه العرب، كما يقال: رجل مجوسي ويهودي، والجمع بحذف ياء النسبة، اليهود والمجوس. ورجل مُعرِبٌ إذا كان فصيحاً، وإن كان عجمي النسب.

وفي حديث الجمعة: كانت تسمى: عَروبة، هو اسم قديم لها، وكأنه ليس بعربي. يقال: يومُ عَروبةٍ، ويوم العَروبة، والأفصح أن لا يدخلها الألف واللام. قال السهيلي: في الروض الأُنف: كعب بن لؤي جد سيدنا رسول الله ﷺ، أول من جمّع يوم العَروبة، ولم تسم العَروبة إلا مذ جاء الإسلام، وهو أول من

سمّاها الجُمعة، وكانت وكشيء تجتمع إليه في هذا اليوم، فيخطبهم ويذكرهم بمبعث النبي ﷺ، وتعليمهم أنه من ولده، ويأمرهم باتباعه والإيمان به، وينشر في هذا أبياتاً، منها:

يا ليتني شاهدٌ فحواءَ دعوته إذا قريش تبغيّ الخلق خذلانا

كما رود في القاموس المحيط: "عَروبة وباللام يوم الجُمعة".

الآن من خلال النقول السابقة نجد أن كلمة "العَروبة" بالفتح تعني في تراثنا اسماً ليوم والذي سماه الإسلام بعد ذلك يوم الجمعة، أما كلمة "العُروبة" بالضم فترتبط بأمرين: اللغة العربية أو النسب العربي. هذا عن مفهوم "العروبة" في التراث ، فكيف تعامل معه القوميون العرب ؟ فهل وقفوا عند معانيه ودلالاته التراثية ؟ أم أنهم حمّلوه معاني ودلالات أخرى ؟ الحقيقة أنهم لم يقفوا عند محدّدات التراث له بل حمّلوه دلالات أخرى ، أبرزها :

١- أصبحت العروبة عند القوميين العرب هي الرابطة التي تجمع العرب عوضاً عن رابطة الإخاء التي رسخها الإسلام

والتي كانت تجمع العرب بعضهم مع بعض، وكانت تجمعهم مع غيرهم من الأجناس.

٢- رفع القوميون العرب "العروبة" إلى مصاف الايديولوجيا، ولما كان المضمون الثقافي لمفهوم "العروبة" في الإطار العربي الإسلامي لا يتعدى معنى البلاغة أو النسب كما رأينا، اضطر القوميون العرب إلى اللجوء إلى مصادر أخرى من أجل ملء مضمون هذه الايديولوجيا مرة من الفكر الليبرالي، ومرة من الفكر الاشتراكي، ومرة من الماركسية، ومرة من الفكر الفاشي، ومرة من النظرية القومية الألمانية إلخ...، الخلاصة لقد أصبح الاتكاء على الحضارة الغربية ضرورة أساسية من أجل القيام بعملية الملء تلك.

٣- لم يسفر الحديث عن ثنائية العروبة والإسلام عند بعض المفكرين القوميين من مثل محمد عزة دروزه في مطلع القرن، ومن مثل عصمت سيف الدولة في الربع الأخير من القرن العشرين عن أي جديد في النظرة إلى العوامل التي تقوم

عليها الأمة [1]، بل بقي الدين الإسلامي مستبعداً من تكوينها، وهو ما أدى إلى أن لا يترك الحديث عن ثنائية العروبة والإسلام أي أثر جوهري في المجتمعات العربية التي تحكمها القيادات القومية العربية، بل بقي الحديث عاماً وعاطفياً وغير ذي قيمة علمية وموضوعية وعملية.

الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها من تعامل دعاة الفكر القومي العربي مع مفهوم "العروبة" أنهم لم يقفوا به عند دلالاته التراثية بل حمّلوه معاني أخرى فجعلوه مرة رابطة، ومرة "أيديولوجيا"، ولما كان التراث لا يساعدهم في مثل ذلك لجأوا إلى الحضارة الغربية لملء هذا المضمون، ونستطيع أن نقول بشكل مؤكد أن هذا المفهوم اختفى لصالح مفاهيم أيديولوجية: قومية مرة، وماركسية مرة أخرى.

■ ■ ■

(١) انظر تفصيلاً لهذا الرأي في كتاب: "من حملة مشاعل التقدم العربي: عصمت سيف الدولة" الذي أصدره مركز دراسات الوحدة العربية.

بعد أن ألقينا الضوء على الظرف التاريخية لنشأة ايديولوجيا القومية العربية، وتحدثنا عن صورة تعاملها مع مفهوم "العروبة"، نتساءل: كيف نظر دعاة ايديولوجيا القومية العربية إلى العصور المتأخرة من تاريخنا وبخاصة إلى عصري المماليك والعثمانيين؟ هذا ما سنلقي عليه الضوء في الصفحات التالية لأنه يبرز مدى الخطأ الذي وقع فيه دعاة ايديولوجيا القومية العربية في تشخيصهم لواقع الأمة، لأن التشخيص الخاطئ يستدعي معالجات وحلولاً خاطئة.

obeikandl.com

كيف نظر دعاة ايديولوجيا القومية العربية إلى العصور المتأخرة من تاريخنا ؟

وصم المفكرون القوميون عصري المماليك والعثمانيين بأنهما عصرا انحطاط معتمدين على التصنيف الذي يقسم تاريخنا إلى عصر نشأة، ثم عصر ترجمة، ثم عصر إبداع فكري، ثم عصر جمود وانحطاط، وعندما فصل القوميون ذلك لم ينطلقوا في أحكامهم السابقة من دراسة الواقع، إنما كان من إنزال تاريخ أوروبا على تاريخنا، ومن المقايسة بين مسيرة أوروبا ومسيرتنا، فأوروبا ذاقت الاستبداد، ومرّت بعصر انحطاط، ثم عصر تنوير ونهضة، لذلك لا بد من أن تذوق أمتنا الأمراض نفسها، وتعرف المراحل نفسها، فإلى أي حد تصح المشابهة السابقة بين تاريخنا وتاريخ أوروبا؟ وإلى أي حد يمكن المقايسة بين الواقعتين؟ وإلى أي حد يصدق القول بأن تاريخنا هو تاريخ استبداد بالمعنى الأوروبي لكلمة استبداد؟ وإلى أي حد يصح اعتبار الفترة العباسية المتأخرة والعصرين: المملوكي والعثماني عصور انحطاط؟ هذا ما سنستعرضه في السطور التالية.

هل يمكن اعتبار العصر العباسي المتأخر وعصر المماليك وعصر العثمانيين عصور انحطاط ؟

درس بعض الباحثين تاريخ حضارتنا وقسموه إلى عدة مراحل، واعتبروا العهدين المملوكي والعثماني من عهود الانحطاط، وأبرز مظاهر الانحطاط في رأيهم: جمود العقول، وقلّة الإبداع العلمي، والتكرار والاجترار في الإنتاج العلمي إلخ...، ومن أبرز الذين شرحوا هذه الحالة ونظّروا لها الدكتور محمد عابد الجابري [1] في كتبه عن العقل العربي ، فماذا جاء فيها عن انحطاط الأمة ووجودها العقلي والعلمي ؟

لقد اعتبر الجابري أنّ أهم عامل ساهم في تكوين العقل العربي هو عصر التدوين، لأنه الإطار المرجعي الذي يشد إليه

---

(١) تعرض مالك بن نبي في كتبه عن مشكلات الحضارة، للفكرة نفسها، ولكن سمّاها تسمية أخرى هي "القابلية للاستعمار"، واعتبر أن الأمة أصبحت معطلة الفاعلية منذ عهد "الموحّدين" لكنّه لم يفصّل تفصيل الجابري في توضيح الفكرة وشرحها والتدليل عليها.

جميع فروع الثقافة وينظم مختلف تموجاتها اللاحقة إلى يومنا هذا، فصورة العصر الجاهلي وصورة صدر الإسلام والقسم الأعظم من العصر الأموي إنما نسجتها خيوط منبثقة من عصر التدوين، وقد استند الجابري في تقرير ذلك إلى نص للذهبي يقول فيه: "في سنة ثلاث وأربعين ومائة للهجرة شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريج بمكة، ومالك للموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة وحماد ابن سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنف ابن اسحاق في المغازي، وصنف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي. ثم بعد يسير صنف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب. وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس. وقبل هذا العصر كان الناس يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة" (تاريخ الخلفاء، جلال الدين السيوطي، ص٤١٦).

ثم درس الجابري الأنظمة المعرفية التي شكلت بنية العقل العربي، وأشار إلى أزمته التي نتجت عن تصادم وتداخل الأنظمة المعرفية الثلاثية وهي البيان والعرفان والبرهان، وكان أبو حامد الغزالي الذي تشخّص في تجربته الروحية وإنتاجه الفكري هذا التصادم والتداخل.

ثم أشار الجابري إلى لحظتين متمايزتين في العقل العربي، الأولى: تمتد من بدايات عصر التدوين إلى لحظة الغزالي كان العقل العربي فيها فاعلاً منتجاً. الثانية: ما بعد لحظة الغزالي ابتدأ ما أسماه بالتداخل التلفيقي بين النظم المعرفية الثلاثة وأصبح العقل العربي فيها جامداً.

لكن الدكتور جورج صليبا توصّل في كتاب جديد تحت عنوان "الفكر العلمي العربي: نشأته وتطوره" [1] إلى نتائج مخالفة لما توصّل إليه الكاتبان السابقان، لأنه اتبع منهجية جديدة في

(١) صدر الكتاب عن مركز الدراسات المسيحية الإسلامية في جامعة البلمند عام ١٩٩٨م.

دراسة العلوم العربية، وتقوم هذه المنهجية على رصد التطـــورات العلمية للعلوم العربية وعلى عدم الانطلاق من نظريات مســـبقة، وطبق ذلك على علم الفلك فتوصّل إلى أنّ العصر الذهبي لعلـــم الفلك العربي هو العصر الذي يطلقون عليه عصـــر الانحطـــاط بالنسبة للعلوم العربية بشكل عام، ويشير في هـــذا الصـــدد إلى نظريات ابتدعها نصير الدين الطوسي في كتابيه "تحرير المجسطي" الذي ألفه عام ١٢٤٧م، و "التذكرة في الهيئة" الذي ألفه بعـــد الكتاب السابق بنحو ثلاث عشرة سنة، وقد أفرد الطوسي فصلاً كاملاً للرد على علم الفلك اليوناني ولإقامة هيئته البديلـــة، وفي أثناء هذا العرض يستخدم الطوسي مرة ثانية النظرية الجديدة التي كان قد اقترحها بشكل مبدئي في كتاب "تحرير المجسطي"، وإذا بهذه النظرية تظهر هي الأخرى بعد حوالي ثلاثة قرون في أعمال كوبرنيك بالذات وبالشكل الذي ظهـــرت فيـــه في "تـــذكرة" الطوسي.

وقد درس المستشرق كارادي فو هذا الفصل بالذات من "تذكرة" الطوسي في أواخر القرن التاسع عشر، وكان قد عثـــر

فعلاً على نظرية الطوسي الجديدة، لكنه لم يستطع أن يضعها في إطارها الصحيح لأنه كان يعمل ضمن العقلية التي لا تتوقع أن تجد أعمالاً إبداعية في هذه المرحلة المتأخرة التي وسمت بعصر الانحطاط.

ولم يتوقف الأمر عند الطوسي وحده بل شمل الإبداع في علم الفلك عشرات من الآخرين في القرون التالية وكان من أبرزهم شمس الدين الخفري الذي كان معاصراً لكوبرنيك والذي كان يتحلّى بمقدرة رياضية وبدراية في دور الرياضيات في صياغة العلوم، ندر أن يوجد مثلها في أعمال الذين أتوا قبل القرن السابع عشر الذي تم فيه فعلاً تكوين العلم الحديث.

وأشار الدكتور صليبا إلى خطأ وقع فيه مستشرق آخر هو فرانسوا نو في قراءته أواخر القرن الماضي لكتاب "سلّم الإدراك" السرياني لابن العبري من القرن الثالث عشر الميلادي عندما لم يستطع أن يفهم عمق الانتقادات الموجهة لعلم الفلك اليوناني التي كانت تتم في مدينة مراغة وفي غيرها من المدن

الإسلامية، لأنه لم يكن يتوقع أي جديد أيضاً في هـذه الحقبـة المتأخرة التي كانت موسومة بالانحطاط والجمود العقلي.

وبناء على هذه الإشارات التي توفّرت لـدى الـدكتور جورج صليبا دعا إلى إعادة النظر في تقسيم تاريخ حضارتنا إلى فترات: عصر نشأة، وعصر ترجمة، وعصر إبداع فكري، ثم عصر جمود وانحطاط، لأنّ هذا التقسيم منسوب إلى المستشرقين الذين يعتمدون مركزية الحضارة الغربية من جهـة، ولأنـه يناقض التطورات الحقيقية للعلوم العربية التي عرفت ازدهاراً في العصـر الذي يسمونه عصر الانحطاط من جهة ثانية.

■ ■ ■

والآن بعد أن رأينا خطأ المفكرين القوميين في تقسيم تاريخنا إلى عصر نشأة ثم ترجمة ثم ازدهار ثم انحطاط، وفي اعتبارهم العهدين المملوكي والعثماني عصري انحطاط، ننتقل إلى مناقشة شبهة أخرى، وهي اعتبارهم تاريخنا تاريخ استبداد بالمعنى الأوروبي للكلمة.

هل تاريخ أمتنا تاريخ استبداد ؟

تحدث مفكرو النهضة وكتّابها عن الاستبداد، وأبرزهم عبد الرحمن الكواكبي في كتابه المشهور "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" الذي ألّفه عام ١٩٠٢م، واعتبروه أخطر مرض واجهته الأمه، وجاراهم في ذلك المفكرون القوميون واعتبروا بداية ذلك مع تسلط الأجناس الأخرى غير العربية على الخلافة، واعتبروا الحرية والتحرر شعاراً رئيسياً من شعاراتهم في كل مرحلة من مراحل عملهم القومي، ولا خلاف معهم في أن النظام السياسي الإسلامي لم يطبق آراءه النظرية التي تقوم على الشورى، والعدل، والاختيار، والتي فصل الفقهاء الحديث عنها في الأحكام السلطانية بشكل عام، وعرف ظلماً حاق بالأشخاص وببعض الفئات الاجتماعية، وذلك بسبب أنه لم يطبق مبدأ الاختيار الذي أكده الصحابة في اختيار أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في كل مراحل تاريخنا الماضي، ولم يحدّد الآلية التي تنفذ ذلك، لكنه لم يعرف الاستبداد. إذن من أين جاء مفهوم

الاستبداد؟ وهل يمكن تطبيقه على تاريخنا؟ وكيف جرى الحكم في تاريخنا؟ وما أبرز آلياته؟

جاء مفهوم الاستبداد من النظام الإقطاعي الغربي في العصور الوسطى حيث كان يملك الإقطاعي فيه الأرض ومن عليها من بشر وحيوان ونبات وشجر، ويتحكم فيهم حسب أهوائه ومزاجه وحسب ما يروق له دون وجود لقانون يرسم أفقاً أو حداً لتصرفاته وأعماله، لذلك عندما جاءت الثورات التي انبثقت عن المرحلة البرجوازية وحملت معها الدستور، اعتبرت هذه الوثيقة (الدستور) التي تحدّد بعض جوانب العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتبيّن واجبات الحاكم والمحكوم وحقوقهما، اعتبرت نهاية لعهد الاستبداد لأنها انتقلت في العلاقة بين الحاكم والمحكوم من العلاقة غير المحددة بأية قواعد أو ضوابط إلى العلاقة المحددة ببعض القواعد والضوابط، ولكن هذه الخاصية كانت موجودة منذ اللحظة الأولى في تاريخنا حيث كان القرآن الكريم دستوراً لأمتنا لم يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم فحسب، بل فصّل علاقة الحاكم بالمحكوم وبيّن واجبات الحاكم، من مثل:

وجوب الشورى، وإقامة الصلاة، وجباية الزكاة وتوزيعها في مصارفها المحدّدة، ونشر الدين، وتحديد العقوبات التي يمكن أن يوقعها الحاكم على المحكومين من مثل: حد السرقة، وحد الزنا، وحد الحرابة، وحد شرب المسكرات إلخ... وبيّن واجبات المحكوم من مثل: الطاعة طالما أن الحاكم مطيع الله ورسوله ﷺ، والنصح للحاكم، ودفع الزكاة، والاستجابة لداعي الجهاد إلخ... إذن هذه التحديدات التي شرعها الإسلام في مجالات الحاكم والمحكوم وفي العلاقة بينهما وفي علاقتهما بالآخرين أزالت سبباً رئيسياً من أسباب الاستبداد، والآن لنر: كيف كانت علاقة الحاكم بالمحكوم والراعي بالرعية على مدار القرون السابقة؟

لقد أنشأ الرسول محمد ﷺ الأمة الإسلامية، وقامت علاقته مع رعيته ﷺ على العدل والمساواة والشورى والرحمة والرأفة والحكمة والعلم إلخ... وكانت نموذجاً للعلاقة المثالية بين الحاكم والمحكوم ولن نفصّل في صورها وحيثياتها لأن خصومنا أو مجادلينا قد يحتجون بأنه لا مجال للمحاججة بخصوص علاقة الرسول ﷺ بالصحابة لأنه نبي تسدّد السماء علاقته برعيته،

وينـــزل عليه جبريل بالحق بخصوصها، وأما الخلفاء الراشـــدون فيسلّم معظم الدارسين بأن العلاقة بينهم وبين رعيتـــهم كانـــت سليمة ومشرقة وإيجابية وقريبة من صورة علاقة الرســـول ﷺ بصحابته رضي الله عنهم وحققت العدل والمساواة والشـــورى والرحمـــة إلخ... لذلك لن نخوض في تفاصيلها طالما أنهـــا ليســـت مجـــال اختلاف، لكن العصور التالية هي مجال الاهتمام بالاستبداد، ونحن من أجل تقرير وجهة نظر صائبة في هذا الموضوع لن نستطيع أن نستقصي في هذا المقال كل وقائع التاريخ الأمـــوي والعباســـي والمملوكي والعثماني من أجل استخلاص أحكام دقيقة في مجـــال الحكم من جهة، ولن نستطيع أن نستقصـــي كـــل تفصـــيلات علاقات الحاكم الإسلامي برعيته خلال كل ذلك التاريخ الطويل من أجل تقرير مدى قربها أو بعدها عن الاستبداد من جهة ثانية، فذلك يحتاج إلى دراسات متعددة نسأل الله العون على تدوينـــها في أيام قادمة، لكن يكفي في هذا المقال إعطاء مؤشرات عن اتجاه الحكم وعن مدى سلامة علاقة الحاكم بالمحكوم في ذلك التاريخ الطويل، وهو ما سنجتهد أن نقوم به.

تميزت فترة الخلافة الراشدة بأن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كانوا أمراء الأمة وعلماءها في الوقت نفسه، لكن العهد الأموي شهد ظهور قيادتين للأمة هما: قيادة الأمراء وقيادة العلماء، ثم استمرار الأمر على هذه المنوال في العهود التالية: العباسية، والمملوكية، والعثمانية، وقد كانت قيادة الأمراء تأخذ شرعيتها من التزامها بالشريعة الإسلامية، وهذا ما يمكن أن نعتبره أول عامل ينفي عنها صفة الاستبداد -كما وضحنا ذلك في بداية الحديث- لأنه كان يحدّد علاقتها برعيتها، ويوضح واجبات وحقوق الطرفين: الراعي والرعية، كما أنها (أي قيادة الأمراء) لم تكن تنفرد بقيادة جماهير المسلمين، بل كانت قيادة العلماء تشاركها في هذه القيادة من جهة، وتحاسبها على كثير من تصرفاتها من جهة ثانية مما يقلل من حجم ظلمها وفرصه، ولا أريد أن أعدد أسماء العلماء الذين ساهموا في قيادة المسلمين على مدار التاريخ الماضي أو أعدد المواقف التي تشير إلى محاسبتهم الأمراء، فالتاريخ مملوء بشواهد تدل على الأمرين السابقين، والأمر أجلى وأوضح من أن يحتاج إلى تعداد أو تدليل، ويكفي

أن نذكر اسمين هما العز بن عبد السلام وابن تيمية ودورهما في تحريك الأحداث وتوجيهها في عصرهما.

ومما تجدر الإشارة إليه أن قيادة العلماء لم تبق في صورة أشخاص إنما تحوّلت إلى أشبه ما يكون بالمؤسسة مع مرور الزمن فأصبحت هذه القيادة تحتوي عدة وظائف في العهد العثماني، منها: شيخ الإسلام الذي كان يسكن عاصمة الخلافة استامبول، ويأتي ترتيبه الثاني في البروتوكول الرسمي بعد الخليفة وقبل الصدر الأعظم الذي هو رئيس الوزراء، ومنها أيضاً: القضاة، والفقهاء، ونقباء الأشراف، وخطباء المساجد وأئمتها، والمؤذنون والخدمة، والقرّاء، والوعّاظ إلخ... وكان هؤلاء يأخذون رواتبهم من خلال الأوقاف، وكان القضاة يقومون بالإضافة إلى قضائهم في الخصومات الشخصية والتجارية، بتثبيت مشايخ الحرف وفض منازعاتهم، وكان القضاة بمثابة حكام شرعيين للأمة، وكانوا يقومون بدور صلة الوصل بين الوالي والأهالي، فينقلون أحكام الوالي إلى الأهالي، وينقلون رغبات الأهالي وطلباتهم إلى الوالي.

وبالإضافة إلى قيادة العلماء التي نافست الأمـــراء علـــى نفوذهم عند جماهير المسلمين، وشاركتهم في هذا النفوذ، ومنعت انفرادهم بالسلطة، برزت قيادات مدنيـــة أخـــرى في المجتمـــع الإسلامي كانت تؤدي دوراً أخلاقياً أواقتصادياً أو رقابياً أوثقافياً أو اجتماعياً إلخ...، ومن هذه القيادات التي تطورت على مـــدار التاريخ الإسلامي: التنظيمات الحرفيـــة، والطـــرق الصـــوفية، والحسبة، والأوقاف، وسأشير باختصار إلى دور كل منها خلال العهد العثماني لأنه -كما قلت- العهد الأكثر اتهاماً من غـــيره بالاستبداد.

فمن دراسة الحرف والصناعات نجد أن كل حرفة كانت تختار شيخها المناسب بإرادتها الذاتية المحلية، وكانت سلطة شيخ الطائفة تشمل إدارة شؤون أبناء الطائفة، والاهتمام بمشـــاكلهم، والإشراف على تنفيذ اتفاقاتهم، والطلب من القاضـــي تســـجيل هذه الاتفاقات، وكان يرفع شكاوى الطائفة على طائفة أخـــرى إلى القاضي بنفسه، وكان الوالي يتصل بأصحاب الحرفـــة عـــن طريقه.

وكان شيخ الحرفة يمارس سلطته اعتماداً على العلاقات التنظيمية والأخوية الصادقة التي كانت تربطه بأبناء الطائفة، فعلى المستوى التقني والتنظيمي يخضع التعليم الحرفي لتراتبية دقيقة بدءاً من المبتدئين إلى الصانع وإلى المعلم. وعلى قاعدة هذه التراتبية لشيخ الحرفة الحق في أن يشدّ بالكار (الصنعة) المبتدئين الماهرين فيصيرون صناعاً أو معلمين. وحفلة الشدّ حفلة ترفيع المبتدئ إلى صانع أو الصانع إلى معلّم، هي حفلة ذات طابع ديني، ويظهر ذلك في قراءة "الفاتحة" والأدعية والأناشيد النبوية التي تتخلّل الحفلة، وإسباغ جو من الورع والتقوى على "المشدود" والحاضرين، والتشديد على "العهد" و"الميثاق" و"الأخوة" أمام الله والجماعة، وكان المشدود يعاهد المعلم على أن يلتزم بقواعد منها: الإتقان، عدم الغش، والتسعيرة العادله، التضامن مع رفاق المهنة إلخ...

وكان هناك "شيخ مشايخ الحرف أو شيخ التجار" وكان يعيّن بإجماع التجار ويشترط فيه أن يكون صاحب دين وأخلاق أهلاً للمشيخة لائقاً بها، وأن يختاره ويرضى به كامل التجار،

وأن يوافق القاضي والسلطان على تعيينه، وكانت مهمة هذا الشيخ تشمل الإشراف على كل طوائف الحرف ومشايخها، ويقوم بصلة الوصل بين الوالي والقاضي من جهة، وهذه الطوائف من جهة أخرى، ولا يتم أي تغيير إلا بعلمه ورأيه، وكان مشايخ الحرف كلهم يُنتخبون بحضوره ويُزكّون بتزكيته.

نشأت الحسبة في مرحلة مبكرة من تاريخ المجتمع الإسلامي، ثم تطوّرت فأصبح يرأسها محتسب ومعه محتسبون معاونون، مهمتهم المحافظة على الآداب والأخلاق والنظافة والحشمة ومنع الغش وعدم الاختلاط ... وقد كانت تهدف أن تجعل الأخلاق الإسلامية سجية وطبعاً ليبقى المجتمع محافظاً على شخصيته وهويته.

أما الأوقاف فقد شغلت ثلث ثروة العالم الإسلامي كما ذكرنا سابقاً في أكثر من موضع في هذا الكتاب، وقامت بدور اجتماعي وثقافي واقتصادي، فقد أنشأت المدارس والمكتبات، وأنفقت على العلماء وطلاب العلم، كما كلفت بعض العاملين بنسخ الكتب من أجل إيقافها على طلاب العلم، كما أنشأت

الأوقاف المستشفيات التي كانت تعالج الناس مجاناً، كما أنشأت الخانات التي كانت تؤوي الناس على الطرقات، كما أوقفت الدور التي تساعد الفقراء وتؤويهم وتطعمهم إلخ...

الخلاصة: لم تعرف أمتنا الاستبداد بالصورة التي عرفها المجتمع الإقطاعي الغربي في العصور الوسطى، ومثّل التزام الأمراء المسلمين بتنفيذ الشريعة الإسلامية الشرط الأول لمنحهم الشرعية من قبل الأمة كما مثل هذا الالتزام نفياً للاستبداد لأنه الوثيقة الدستورية التي اعتبر الغرب وجود مثلها إنهاء للاستبداد في حياته السياسية، وقامت قيادة العلماء بدور القيادة الموازية لقيادة الأمراء على مدار التاريخ الإسلامي مما جعلها تواجه ظلم الأمراء فتقلل من حجمه حيناً، وتبطله حيناً آخر، كما قامت مؤسسات ورابط أخرى من مثل: المنظمات الحرفية، والحسبة، والأوقاف، بدور الوسيط بين جماهير المسلمين والقيادة الحاكمة حيناً، وتوسيع هامش الاستقلال في حياتهم حيناً آخر، وإبعادهم عن تدخلات الأمراء حيناً ثالثاً، وفي كل الأحوال قامت تلك المؤسسات والروابط والقيادات بإغناء الجانب المدني والثقافي والاقتصادي

والاجتماعي والرقابي في حياة جماهير المسلمين إغنـــاء فريـــداً، ورعايته وتوسيع دائرته .

■ ■ ■

استعرضنا فيما سبق موقف الفكر القومي العربي من تاريخ أمتنا، ورأينا كيف أنه شخص العهدين المملـــوكي والعثمـــاني وجانباً من العصر العباسي بأنها عصور انحطاط، وكذلك اعتـــبر العهود العباسية والمملوكية والعثمانية عهود استبداد، ولم يكـــن مصيباً في كلا التشخيصين، بل كان ناقلاً لمقـــولات أوروبـــا، ومتزلاً إياها على تاريخنا، وأوقعه هذا الخطـــأ في التشـــخيص في خطأ آخر، وهو ضرورة البحث عن بديل للرابطة القائمة وهـــي العثمانية، وعن بديل للأيديولوجيا الموجودة وهـــي أيـــديولوجيا الدين الإسلامي، فنقل فكرة الأيديولوجيا القومية التي ســـادت أوروبا في القرن التاسع عشر، فما القومية العربية التي دعا إليهـــا دعاة الفكر القومي العربي؟ وما مضمونها؟ هذا ما ســـنجتهد في توضيحه وتحليله في الفصل الثاني.